

قضية الحريات الفكرية وعلاقتها بوحدة الأمة في فكر الشيخ محمد رشيد رضا

**The issue intellectuel freedoms
and their relation to the unity of the Ummah
in the thought of Sheikh Muhamed Rashid rida**

عبد النور سناد^{1*}، أ.د. عبد الرزاق دحمون²

¹ جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية، مخبر مناهج البحث في العلوم الإسلامية،
a.senad@univ-alger.dz

² جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية، مخبر مناهج البحث في العلوم الإسلامية،
a.dahmoun@univ-alger.dz

تاريخ النشر: 2026/06/10

تاريخ القبول: 2026/02/20

تاريخ الاستلام: 2025/09/29

ملخص:

يتناول هذا البحث آراء أحد كبار رجال الإصلاح في العالم الإسلامي في زمنه الشيخ محمد رشيد رضا في قضية أهمية الحريات الفكرية ومكانتها في الإسلام وعلاقتها بوحدة الأمة وهل هي علاقة إيجابية أم سلبية، وهو موضوع يكتسي أهمية بالغة لاسيما في عصرنا هذا، عصر الحريات، وكثرة الخلاف والفرقة، ولمكانة الشيخ الرفيعة، وتجربته المشابهة لظروف عصرنا، وقد اعتمدت هذه الدراسة على منهجية استقرائية تحليلية.

وخلصت الدراسة إلى أن الشيخ يرى أن الحرية الفكرية ضرورية للتعايش، ونافعة في الوصول إلى الحق وجمع الأمة عليه، بشرط أن تكون مضبوطة بالضوابط الشرعية والأخلاقية، وإلا صارت عامل هدم وتفرقة، كما يرى بأن الاختلاف سنة ربانية، وأن ما كان منه مبنيًا على حسن القصد واحترام أصول الشرع فهو مقبول، وأن المرفوض من الآراء هو ما كان مبنيًا على التعصب والهوى، ولهذا جعل الشيخ أساس مشروعه النهضوي الدعوة إلى تحرير الفكر، مع الاجتماع على الرجوع إلى أصول الإسلام الثابتة، والتسامح في مسائل الخلاف المعتبر، وقد كان لدعوة الشيخ أثر طيب في زمانه وفي دعوة كثير ممن جاء بعده.

الكلمات المفتاحية: رشيد رضا؛ الحريات الفكرية؛ وحدة الأمة.

Abstract:

This study explores the views of one of the prominent reformist figures in the Muslim world, Sheikh Mohamed Rashīd Riḍā, on the significance of intellectual freedom, its status in Islam, and its relationship to the unity of the Muslim Ummah—whether positive or negative. The topic carries particular importance in our time, an era characterized by the prevalence of freedoms as well as widespread discord and division, especially given the Sheikh's esteemed status and the striking resemblance between his historical context and our contemporary circumstances.

The research adopts an inductive-analytical methodology and concludes that Sheikh Riḍā regarded intellectual freedom as essential for coexistence and as a constructive means of attaining the truth and uniting the Ummah upon it—provided it is governed by Sharī'ah-based and ethical principles. Otherwise, it may become a source of destruction and division. He further viewed difference of opinion as a divine law, acceptable when motivated by sincerity and adherence to the foundations of Sharī'ah, while rejecting opinions driven by prejudice or desire. On this basis, Sheikh Riḍā made the liberation of thought—coupled with collective adherence to the immutable principles of Islam and tolerance in legitimate matters of disagreement—the cornerstone of his reformist project. His call left a profound impact both in his own time and on many reformist movements that followed.

Keywords: Rashid Riḍa, intellectual freedoms, unity of the Ummah

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، أما بعد:

مع مطلع العصر الحديث، وما رافقه من ثورة صناعية وتقدم في جميع المجالات في العالم الغربي، مقابل ما كان يعيشه العرب والمسلمون من انحطاط وتخلف، وخضوع للمستعمر، وانقسام الأمة وزوال الخلافة، وتأثر الكثير من المسلمين بالمبادئ والمظاهر الغربية، برزت في الساحة العلمية والفكرية عدة قضايا خطيرة، لعل من أهمها قضية الحرية، وقضية الوحدة، ومفهوم كل منهما وفلسفته، ونظرياته وتطبيقاته، وعلاقة كل واحدة منهما بالأخرى، وقد كان لرجال الإصلاح في العالم الإسلامي دور بارز في تناول هذين القضيتين، ومن أبرز هؤلاء الشيخ محمد رشيد رضا، الذي تطرق لهما كثيرا في كتاباته وخطاباته، وكان لهما نصيب وافر من جهوده واجتهاداته، في سبيل الإصلاح والتجديد الذي كان يشكل منتهى آماله في حياته، والإشكال المطروح في هذا السياق:

ماهي علاقة الحرية بوحدة الأمة في فكر الشيخ - رحمه الله -؟ وهل صحيح أن

إطلاق الحريات يهدد كيان الأمة؟

أهمية البحث: يعتبر البحث في هذا الموضوع بالغ الأهمية - لاسيما في واقع الأمة المعاصر - نظرا لما يلي:

أولا: بعد الثورة الصناعية في أوروبا، وما صاحبها من تركيز على قضية الحرية والتحرر، وبروز مفاهيم جديدة، ومذاهب مختلفة تعلي من قيمة الفرد، وتنادي بالحرية الفردية، وتغلو في مفهوم الحرية، وتجعل منها الأساس والغاية من وجود الإنسان، تم طرح القضية بشدة في العالم الإسلامي بسبب عوامل التأثير والتأثير، وانقسم المسلمون حول القضية، بين من ينادي بإطلاق الحريات الفكرية للناس إلا في ما يمس بحرية الغير، وبين من يرى ضرورة تقييدها بما لا يخالف الشرع والعقل حتى لا تنفلت.

ثانيا: التشابه الكبير بين الظروف الفكرية والاجتماعية التي كان يمر بها العالم الإسلامي، والتي تعيشها الأمة اليوم، من حيث أصل الأمراض والعلل التي عانت منها الأمة ولا تزال،

وعلى رأسها: التفرق والانقسام، تعدد الأفكار والاتجاهات، التخلف الحضاري، الغزو الفكري، والتبعية الثقافية، ونحوها.

ثالثاً: مكانة الشيخ محمد رشيد رضا الكبيرة كواحد من أبرز رجالات الإصلاح في عصره، ومشروعه الفكري النهضوي، واهتمامه الكبير بقضية وحدة الأمة كواحدة من أبرز الغايات التي سعى لتحقيقها، وأيضا بقضية الحرية الفكرية بصورها المستجدة التي فرضت نفسها كواحدة من أهم القضايا المعاصرة، ما يجعل تجربته رائدة وفريدة، تحتاج إلى إبراز لتكون منارا للأجيال، وقدوة للمصلحين، إضافة إلى حقه علينا في خدمة تراثه، والتذكير بجهوده، وتقدير تضحياته.

وقد اعتمدت في بحثي هذا المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث تم استقراء آراء الشيخ رشيد رضا في الموضوع من خلال اختيار عينات من كتاباته ومقالاته، ومن ثم تحليلها وشرحها في ضوء ما يعرف عن الشيخ من مواقف وآراء.

وجاء البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

- مقدمة: تشتمل على تمهيد وإشكالية، وأهمية الموضوع، والمنهج المتبع فيه.

- المبحث الأول: تعريف بالشيخ رشيد رضا والظروف الفكرية في عصره.

- المبحث الثاني: تعريف الحرية ومكانتها عند الشيخ.

- المبحث الثالث: الوحدة الإسلامية وأثر الحرية الفكرية عليها.

- خاتمة: تتضمن أهم النتائج والتوصيات.

وهذا الآن تفصيل الكلام حول هذه المباحث والمطالب المذكورة بتوفيق الله وحسن عونه.

المبحث الأول: تعريف بالشيخ رشيد رضا ونبذة عن الظروف الفكرية في عصره

المطلب الأول: تعريف مختصر بالشيخ محمد رشيد رضا:

الشيخ رشيد رضا من أشهر رواد الحركة الإصلاحية في بلاد الإسلام مطلع العصر الحديث، فهو بهذا غني عن التعريف بالنسبة لعموم طلبة العلم والدارسين، فضلا عن المتخصصين، ولهذا أكتفي بذكر تعريف مختصر يشتمل على أهم المعلومات عن سيرته، مراعاة لاقتضاء هذا البحث لضرورة الاختصار:

هو الشيخ العالم المتفنن والأديب الكاتب والصحفي: محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني، أحد رجال الإصلاح في العالم الإسلامي، ولد بمدينة القلمون التابعة لطرابلس الشام سنة: (1282هـ/1865م) وفيهما نشأ وتعلم، وظهر عليه التنسك والتفوق في التحصيل في سن مبكرة، وكان يكتب في الصحف وينظم الشعر، قبل أن يرحل إلى مصر سنة: (1315هـ)، فتتلمذ على يد الشيخ محمد عبده ولازمه وتأثر به تأثرا بالغا، وفيه أصدر مجلة (المنار) التي بث فيها آراءه في الإصلاح الديني والاجتماعي، وأصبح مرجعا للفتيا، عاد إلى سورية مرتين، وعاد بعدهما إلى مصر، كما رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا، ليستقر أخيرا في بلده الثاني مصر، إلى أن توفي بها فجأة سنة: (1354هـ/1935م)، ودفن بالقاهرة، من أشهر آثاره: (مجلة المنار)، وتفسير القرآن الكريم المسمى: (تفسير القرآن الحكيم) والمشهور بـ (تفسير المنار) ولكنه لم يكمله⁽¹⁾.

المطلب الثاني: الظروف الفكرية في عصره:

من خلال النظر في مؤلفات الشيخ نجد اختلافا وتنوعا فكريا كبيرا، لعل أبرز مظاهره تتمثل فيما يلي:

أولا: انتشار الأقليات الدينية داخل العالم الإسلامي، وعلى رأس تلك الأقليات اليهود والنصارى، وهو أمر مشهور مستفيض، وكثير في كتاباته.

(1) انظر: يوسف سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، (2/934-936): الزركلي، الأعلام، (6/126).

ثانياً: المذاهب الإسلامية أو المنتسبة إلى الإسلام، العقدية منها والفقهية والسلوكية، ففي الجانب العقدي يبرز الخلاف السني الشيعي، وكذا الخلاف داخل كل مدرسة منهما، كما نجد بعض الفرق الأخرى، منها الغالية، ومنها دون ذلك.

وأما في الفقه فنجد تصدر المذاهب الأربعة المعروفة، وما صاحبها من مظاهر التعصب لها، والجمود على آرائها من قبل أكثر الناس، مع بروز بعض المحاولات الاجتماعية القليلة.

وأما في الجانب السلوكي فنجد الطرق الصوفية بشكل خاص على اختلاف في مبادئها وطقوسها.

وداخل هذه الفرق والمذاهب تتعدد المناهج ما بين مستقيم ومنحرف، وجامد ومقلد، وعقلي ونقلي، وإصلاحي مجدد، وجافٍ وغالٍ، وما بين ذلك كثير⁽¹⁾.

ثالثاً: الأحزاب السياسية، المختلفة المشارب والغايات، ما بين إصلاحي ومحافظ، وتغريبي وعلماني وقومي وعنصري.

ومن أهم تلك الأحزاب في ذلك الوقت وأكثرها تأثيراً على الساحة نجد حزبين هامين بحكم صلتهم القريبة بمركز الحكومة في تركيا، وهما: (جمعية الاتحاد والترقي)، و(الحركة الوطنية التركية) المعروفة بـ (الكمالية)، نسبة إلى مؤسسها وزعيمها المدعو (مصطفى كمال)، والمشهور بلقب: (كمال أتاتورك)، هذان الحزبان اللذان وصفهما الشيخ بأنهما صنوان في فكرهما الإلحادي العلماني، القائم على العصبية التركية، والتنصل من تعاليم الإسلام والحضارة العربية الإسلامية، والدعوة إلى التحرر واتباع الثقافة العصرية الغربية في الحكم وطريقة الحياة⁽²⁾.

(1) انظر على سبيل المثال لا الحصر: رشيد رضا، تفسير المنار، (380/8 - 381)، و(354/11)؛ ومَقَالِي: الاجتماع السابع لجمعية أم القرى، و: السنة والشيعية، مجلة المنار، (704/5 - 705)، و: (290/31) وما بعدها، على التوالي.

(2) انظر: رشيد رضا، تفسير المنار، (274/9 - 275)؛ ومقال: الانقلاب التركي الجديد، مجلة المنار، (703/23) وما بعدها، ففيها تفصيل عن الحركة الكمالية ومبادئها وأهدافها ودورها في إسقاط الخلافة العثمانية وإقامة دولة تركية على أساس النظم الغربية في الحكم والتشريع والتطبيق.

رابعا: المذاهب الفكرية المعاصرة الدخيلة على بلاد الإسلام، كالإلحاد، والشيعوية، والماسونية، والإباحية التحررية، ودعاوى التمدن، والفلسفات العقلية، والاشتراكية والمادية الرأسمالية وغيرها، والتي أسهم وشجع على ظهورها وانتشارها في بلاد الإسلام عوامل كثيرة، كالجهل بالدين، والابتعاد إلى الغرب، وسُنَّة تأثر المغلوب بالغالب، في ظل آثار الثورة الصناعية والاكتشافات العلمية، إضافة إلى دور الاستعمار المخيم على جزء كبير من أرض الإسلام ماديا وفكريا⁽¹⁾.

وقد قابل ذلك ظهور حركات إصلاحية تجديدية، وإن كانت مختلفة المشارب والتوجهات، ساءها ما تراه من واقع الأمة المرير، لاسيما بعد سقوط الخلافة، وانقسام العالم الإسلامي وتخلفه، وتسلب الأعداء عليه، هذا الوضع كان له دفع قوي لدى ثلة من الإصلاحيين الغيورين على دينهم وأمتهم، ومنهم الشيخ محمد رشيد رضا الذي حمل هم الدعوة الإصلاحية في بلاد الإسلام، القائمة على التجديد المنطلق من العودة إلى أصول الإسلام الأولى، وقد تأثر في دعوته أيما تأثر بدعوة الشيخين: جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، وإن كان تأثره بهذا الأخير أكبر بحكم كثرة مصاحبته له وتلمذه على يديه، بيد أنه في آخر حياته نحا أكثر إلى الاتجاه النقلي السلفي، خلافا لما كان عليه شيخاه - وخصوصا محمد عبده - من النحو تجاه الفكر العقلي العصري، القائم على تفسير الحقائق الدينية وفق معطيات العصر الحديث⁽²⁾.

(1) انظر مثلا: رشيد رضا: تفسير المنار، (4/352)، (8/204، 381)، (9/312، 458)، (11/100)؛ ومجلة المنار، مقال: الماسون في الدولة العثمانية، (14/80)، ومقال لصالح رضا بذات المجلة، نشوء فكرة الله، (17/225).

(2) انظر: أديب غير معروف، تطور الإسلام، مجلة المنار، (م35/55 - 56)؛ شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة، (ص166) وما بعدها؛ وخصوصا: فهد الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، (ص170 - 187)، وهذا الأخير فيه بيان أشمل.

المبحث الثاني: مفهوم الحرية الفكرية ومكانتها عند محمد رشيد رضا المطلب الأول: مفهوم الحرية الفكرية:

قبل التطرق إلى مفهوم الحرية الفكرية عند رشيد رضا يحسن بيان مفهومها العام كمركب إضافي يتكون من لفظتين هما: (الحرية) و(الفكرية)، ولا شك أن معرفة مفهوم المركب الإضافي يتوقف على معرفة معاني مفرداته كل على حدة، وذلك كالآتي:

1 - تعريف الحرية لغة واصطلاحاً: الحرية في اللغة معناها الخلو من الرق والقيود والعيوب والنقائص⁽¹⁾.

وأما في الاصطلاح فلعل من أنسب وأجمع التعريفات ما ذكره بعض الباحثين بأنها تعني في العموم: قدرة الإنسان على التصرف بإرادته واختياره من غير قيد خارجي⁽²⁾، أي أنه يختار ما يأتي وما يذر، وما يفعل وما يترك دون إكراه ولا منع، وهذا المعنى هو المقصود عند الإطلاق، وأما في الواقع فينبغي أن تُقيّد بالشرع والأخلاق واحترام حقوق الآخرين، حتى لا تصير فوضى واعتداءً وتقييداً لحرية الغير، فتناقض مدلولها⁽³⁾.

2 - تعريف الفكر: الفكر في اللغة معناه إعمالُ الخاطر أو العقل في الشيء، والتأملُ والتَّظُّرُ فيه⁽⁴⁾.

وأما في الاصطلاح: فهو: "اسمُ جنسٍ يُطلق على الأفكار الحاصلة من وظيفة التَّفَكُّر والتَّعَقُّل التي أودعها الله في قلوب الناس"⁽⁵⁾؛ فهو مُلازمٌ للعقل، يحتمل الصواب والخطأ، ويطلق على عملية التفكير، أو على نتائجها، وينسب إلى صاحبه، أو مجاله، أو أي صفة من أخص صفاته، فيقال مثلاً: فكر عربي، أو إسلامي، أو غربي، أو فكر حديث، ونحو ذلك، ويدخل فيه المعتقد، والرأي والتعبير عنه.

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة: (حَز)، (6/2).

(2) انظر: علي الشَّحود، مفهوم الحرية بين الإسلام والجاهلية، (ص/9).

(3) انظر: محمد عزار، الحرية مقصد شرعي عند علماء جمعية العلماء المسلمين، الجزائر: مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، مج: 15، ع: 2، 2023، (ص/630).

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: (فَكَر)، (65/5).

(5) عبد الله الجربوع، أثر الإيمان في تحصين الأمة ضد الأفكار الهدامة، (584/2).

3 - تعريف الحرية الفكرية: من خلال النظر في تعريف الحرية والفكر، نخلص إلى تحديد مفهوم مناسب للحرية الفكرية باعتبارها مركبا إضافيا، وهي: "تَمْكِينُ الفرد من إبداء آرائه وأفكاره بحُرِّيَّة تامَّة، بأيِّ وسيلةٍ كانت"⁽¹⁾، ومن توابع ذلك ألا يَتعرَّض لأيِّ اعتراض أو عقوبة على أفكاره، إلَّا ما كان فيه اعتداء على حريات الغير وممتلكاتهم ومقدساتهم فيُمنع.

والجدير بالذكر أن المقصود بالحرية الفكرية هو حرية التعبير عن الأفكار، لا مجرد اعتناق الفكر، إذ أن هذا الأخير أمر شخصي باطني لا يمكن للناس الاطلاع عليه، وبالتالي فإن الحديث عن تقييده أو منعه أمر عديم المعنى.

المطلب الثاني: مفهوم الحرية الفكرية عند رشيد رضا:

يعتبر رشيد رضا بأن الحرية مع كونها في الأصل تعني الخلو من الموانع، إلا أن ذلك لا يعني التهلك، ولهذا فهو يرفض المعنى السائد عند عامة الناس بأن الحرية تعني (إتيان الموبقات جهارا)، وربما رأوا في ذلك كمالا تبعا لما يعيشه الغرب من حرية تصل إلى الإباحية وانتهاك الآداب العامة، التي هي أساس الحفاظ على كيان الأمة ونظام الإنسانية والهيئة الاجتماعية، بل التردّي عن درجة الإنسانية إلى درك الهيمية، واستبدال الشقاء بالسعادة⁽²⁾.

ولا شك أن المعنى السَّابق يجب أن يُجعل قيدًا لما أطلقه الشيخ رشيد رضا في موضع آخر حيث قال: "وقد عرّف الحرّيّة من عرّفها بأن يكون الإنسان مختارًا في قوله وفعله لا يعترضه مانعٌ ظالم"⁽³⁾، إذ إنّ الأصل حمل مطلق الكلام على المقيد كما هو معلوم عند العقلاء.

ويمكن اعتبار هذا التعريف الأخير بياناً لمعنى الحرية من حيث هي في الأصل، وأن تقييدها بقيود أخلاقية أو دينية أو عرفية أو قانونية أو غيرها إنما هو بيان لما يجب أن تكون عليه الحرية حتى لا تنفلت فتصبح عبودية للهوى، أو تضيقا على الآخرين.

ويزيد ذلك تأكيداً ما ورد في جوابه - رحمه الله - على سؤال عما إذا كانت الحرية الدستورية تعني الفوضوية والانفلات من القيود الشرعية والأخلاقية، مادام ذلك لا يخالف

(1) علي الشَّحود، مفهوم الحرية بين الإسلام والجاهلية، (ص/157).

(2) انظر: رشيد رضا، الدستور والحرية والدين الإسلامي، مجلة المنار، (12/611).

(3) رشيد رضا، الداء أو الفتور العام، مجلة المنار، (5/69-70).

ما قرره القانون لحفظ حقوق الغير كما تعتقد العامة؟، حيث أجب بأن الحرية إذا كانت تعني منح الناس حقوقهم كاملة، ومنعهم عن الاعتداء على حقوق الغير، وكذا عدم اعتداء السلطة على حرية الناس، ومنعهم من الاعتداء على حرية غيرهم، فهي موافقة للشرع الإسلامي الحنيف، فقد قال عمر رضي الله عنه : "مُنْذُ كَمْ تَعَبَّدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتُهُمْ أَمْهَاتُهُمْ أَحْرَارًا"⁽¹⁾؛ وأما عَدُّ مخالفة الحدود الشرعية المجمع عليها والانفلاتِ حريّةً؛ فأمرٌ غير صحيح البتّة، لا شرعا ولا عقلا⁽²⁾.

المطلب الثالث: مكانة الحرية عند الشيخ:

تحتل الحرية مكانة عظيمة في فكر رشيد رضا، فهو يرى بأن حرية الإنسان هي أعزّ شيء لديه بعد حياته، فإذا فُقدت فقدت معها الآمال، وبطلت الأعمال، وتعلّلت الشرائع والقوانين، وإن الأمة ما ابتليت بلاء أعظم ولا أخطر من فقد الحرية، بل ويعتبر الحرية روح الدين ولب مقاصده، إذ يدخل في معانيها تساوي الأفراد في أصل الحقوق، ومحاسبة الحكّام باعتبارهم وكلاء عن الشعب، والمطالبة بالحقوق دون منع، والأمن على الأديان والأنفس والأعراض والأموال والأفكار، ومن أنواعها حرية التعليم والتعلم، والتعبير والبحث، ونحو ذلك⁽³⁾.

كما يؤكد رشيد رضا أنّ تشريع عتق الرقاب في الكفارات، وتضييق موارد الرِّق، دليل على اعتبار الشريعة أن الإنسان إنما خلق ليكون حرا في الأصل⁽⁴⁾، وقد جاء في الشريعة التنبيه إلى اعتبار الحرية حياة، والاستعباد موتا، من خلال تشريع تحرير الرقبة في قتل النفس، فكأنّ المعنى هو إعادة بعث نفس أخرى من ميتة الرِّق إلى حياة الحرية كبديل عن النفس المقتولة.

وبناء على ما سبق ذكره فقد اعتبر - رحمه الله - الإسلام دينَ الحرّية، لأنه الدين الذي حرّر الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وقد بيّن الله في القرآن أنّ الرسل إنما بعثوا مبليّغين، غير محاسبين على ما في أفئدة الناس من الأفكار، وليس لهم حق إكراههم ولا

(1) هذا الأثر بلفظه جاء ضمن قصة رواها: ابن عبد الحكم في: فتوح مصر والمغرب، (ص/194 - 195).

(2) انظر: رشيد رضا، الدستور والحرية والدين الإسلامي، مجلة المنار، (12/611).

(3) انظر: رشيد رضا، الداء أو الفتور العام، مجلة المنار، (5/70).

(4) انظر: رشيد رضا، الوحي المحمدي، (ص/240) وما بعدها؛ تفسير المنار، (2/94).

جزائهم، فكل ذلك حق لله وحده، وإنَّ مدى استعدادهم وقبولهم أو رفضهم للدين داخل تحت مشيئة الله الكونية فلا حاجة للإكراه أصلاً، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: 35]⁽¹⁾.

- ومما استدل به الشيخ رشيد رضا على مكانة الحرية في الإسلام أنَّ الله أوجب طاعة الرسول في الأوامر الشرعية دون ما يراه برأيه من أمور الدنيا، ولذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يناقشونه في بعض المسائل، وربما رجع عن رأيه إلى رأيهم، وقد سار على نهجه هذا الخلفاء الراشدون من بعده، لدرجة أن أدنى المسلمين منزلة ربما اعترض على بعضهم وخاطبه بلا قيود، وربما سوَّوا بين رجل من عامة اليهود وبين رجل من خواص المسلمين وأقربهم من رسول الله ﷺ أمام ميزان الحق، فإذا كان هذا من الرسول ﷺ وخلفائه، فكيف بمن دونهم، وقد أوجب الله طاعة أولي الأمر في ما لا يخالف شرعه، فلا يجوز ادعاء العصمة والطاعة المطلقة لهم، كما تدعي بعض الديانات والطوائف⁽²⁾.

- كما وتتجلى مكانة الحريات الفكرية في مكانة الفكر والعقل في الإسلام، إذ جعل الله العقل مناطاً للتكريم والتكليف، واعتبره سبيل الوصول إلى اليقين، وذكر الله في كتابه الكريم العقل والفكر ومشتقاتهما وأفعالهما على سبيل المدح والامتنان عشرات المرات، وأثنى الله كثيراً على الذين يتفكرون في آيات الله ويعقلونها ويهتدون بها، وذمَّ الذين يهملون استعمال عقولهم، ويبيِّن أن ذلك من أسباب عذاب الآخرة؛ فمن تأمل هذا علم أن المؤمنين حقيقة الذين يصعدون درجات الكمال والتزكية ومعرفة الله هم أهل التفكير، لا أهل الغفلة والجمود، التي تهوي بأصحابها إلى مرتبة الهيمية، وفي بيان ذلك يقول رشيد رضا: "وقد كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكير واستقلال العقل على البشر حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر، وأعتقهم من هذا الرق، وقد تعلم هذه الحرية أمم الغرب من المسلمين، ثم نكس هؤلاء المسلمون على رؤوسهم فحرموها على أنفسهم"⁽³⁾.

ولهذا نجد الشيخ رشيد رضا يجمع في استدلاله على أصول الدين بين العقل والنقل، ويرى بأنَّ النقل لا يمكن أن يخالف القطعي من المحسوس والمعقول، وأنَّ العقل

(1) انظر: رشيد رضا، مقال: الخلافة الإسلامية، مجلة المنار، (345/24 - 346).

(2) انظر: المصدر والموضع نفسه.

(3) تفسير المنار، (203/11).

يُوضَح المنقول ويؤيِّده، فإذا وجد في النَّقل ما يعارض المقطوع به حسًّا أو عقلاً، فإنَّه يُؤوَّل بما لا يخرج عن أصول الدِّين القطعية، ولا قواعد اللُّغة العربيَّة، مع الجزم بأنَّه لم يرد في الشرع ما يخالف ذلك كلَّه⁽¹⁾.

والشيخ رشيد رضا - رحمه الله - يرى بأن الفكر سابقٌ للعمل، فإذا قُيد الفكر قُيد معه تقدُّم الأمة، أما التفكير الحرّ فهو الذي يُنتج، ويختار الأصلح فيمضيه، ويعرف الفاسد فيلغيه؛ وبناءً على ذلك فإن الواجب هو احترام الرأْي المخالف؛ لأن حرية الفكر هي طريق ظهور الحقائق التي هي مناط الفلاح، والحق لا خوف عليه من ظهور الحقيقة، ولا من تعدد الأفكار، بل إن مخالفة الحق لا تزيده إلا قوة وظهوراً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18]⁽²⁾.

وأما القهر وأنواع الإكراه فإنَّها - في نظره - لا تلد إلا أمَّهات الرذائل كالكذب والنِّفاق والمكر، وإن الضغط وتشديد الرقابة على الصحف - مثلاً - وإكراهها على اتجاه معين، يفسد الأخلاق، ويؤدي إلى الشقاق، ويوهن العزائم، وينتج المداهنة والنفاق، وعلى هذا الأساس يعتبر أن الواجب منح الحرية للقضاة والمسؤولين في الاجتهاد في إطار أصول الشريعة ومبادئها⁽³⁾.

وقد نقل رشيد رضا عن عبد الرحمن الكواكبي أنه قال لهم مرة: "إنَّ الإنسان يتجرأ أن يقول ويكتب في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في بلاد الاستبداد، بل إن بلاد الحرية تولد في الذهن من الأفكار والآراء ما لا يتولد في غيرها"⁽⁴⁾.

- ومن صور حرية الرأْي والفكر في الإسلام تشريعُ الشُّورى الثابتة بالأدلة من القرآن والسنة وعمل السلف، كقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]، والشورى معناها التَّشاورُ بين أهل الرأْي من المسلمين فيما ليس فيه نصُّ قطعيّ، ولا إجماعٌ ثابتٌ، من أمور المصالح العامَّة والنَّوازل، وما تخضع له من ظروف الزَّمان والمكان.

(1) انظر مثلاً: رشيد رضا، التبشير والمبشرون، مجلة المنار، (192/25).

(2) انظر: رشيد رضا، الحرية واستقلال الفكر، مجلة المنار، (114/12).

(3) انظر: رشيد رضا، مقال: الجرائد، و: الإصلاح المطلوب، مجلة المنار، (659/1، 752) على التوالي.

(4) رشيد رضا، تنمية سيرة الكواكبي، مجلة المنار، (279/5).

وقد ذَكَرَ الشيخ رشيد رضا عن بعض السلف أن النبي ﷺ كان مستغنيا عن الشورى، ولكن الله أمره بها ليستأن به من بعده، ويقوم بها من هو أدنى منه من باب أولى، فالإمام في الإسلام ليس حاكمًا مطلقًا، بل مقيدٌ بالنصوص وفعل الخلفاء الراشدين والشورى ومصلحة الأمة وغير ذلك⁽¹⁾.

المطلب الرابع: أهم عوائق الحرية:

انطلاقاً من أهمية الحرية الموضحة في المطلب السابق، فإنَّ الشيخ رشيد رضا ينبه ويحذر من وجود عوائق للحرية، متى ما وجدت في بيئة من البيئات إلا وقيدتها، وجعلت الفكر مُوجَّهاً خاضعاً لهذه الجهة أو تلك، دون اعتبار للحق من الباطل، والخطأ من الصواب، ومن أهم تلك الموانع:

1- الخوف من الفرقة والاختلاف: وهو أهم عنصر في هذا السياق، لعلاقته الوطيدة والمباشرة بموضوع هذا المقال، وقد أكَّد الشيخ رشيد رضا أن دعوى الحفاظ على وحدة الأمة، وصيانة عقيدة شعبها ولو كانت باطلة، هي حجة دائماً ما كانت عكازة يدفع بها أهل الضلالة والفساد في وجه دعوة الأنبياء والمصلحين، وأما العقلاء من الناس فإنهم يتبعون الحق متى ما تبين، ولو خالفهم من خالفهم، فإن العيب في المخالف لا فيمن يتمسك بالحق⁽²⁾.

وبدل على الكلام السابق قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153]، فقد بيَّن تعالى أن سبب الفرقة هو اتباع السبل المخالفة للحق، وهو هذا الشرع القويم وأصوله المعلومة الثابتة نقلاً وعقلاً، وأما من كان على الحق وإن خالف أتباع تلك السبل فقد اتبع سبب الاجتماع، وإنَّما العيب فيمن خالفه، وعليه تقع تبعة الفرقة والعداوة⁽³⁾.

2 - التعصب والتقليد الأعمى: وقد ذكر رشيد رضا أنهما آفتان عظيمتان ما فتى أكثر الضالين يدفعون بهما في وجه الحق، فحالتا بينهما وبين النظر الحر والتفكير السليم،

(1) انظر: رشيد رضا: الأحكام الشرعية المتعلقة بالخلافة، مجلة المنار، (749/23 - 752)، و(33/24)؛ و: الخلافة، (ص/37).

(2) انظر: نفس المصدر والصفحة.

(3) انظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (105/16).

والتجرد للحق، فحرمتهم من الهداية والفهم، فلم يقبلوا من الدين إلا ما وافق ما هم عليه، وما وجدوا عليه آباءهم وأقوامهم، بدعوى المحافظة على الرموز والثوابت⁽¹⁾.

3- اتباع الهوى: وهو من أكثر الأسباب التي تصد الناس عن الحق، وتحرمهم حرية التفكير، فإذا جاءهم الحق بخلاف ما يحبون فإنه يصعب عليهم التخلي عن ما يحبونه، وقد يعطلون تفكيرهم خوفا من الحقيقة التي لا تلائمهم.

ويدخل في باب اتباع الأهواء صنف من الناس يدعون الحرية، لكنهم يعتبرون العقائد والأفكار مهما كانت مثبتة بالأدلة القاطعة مادامت غير حسية أو تجريبية، لا تعدو أن تكون قناعات شخصية، تلزم أصحابها، ولا يجوز لهم أن يدعوا إليها غيرهم، أو أن يخطئوهم بسببها، لأن ذلك مناف عندهم للحرية المشتركة⁽²⁾.

4- ومنها القهر والإكراه: فإنه مناف للحرية الفكرية ومضاد لها⁽³⁾، إذ إن المكره لا اختيار له ولا إرادة، مما يجعله غير مسؤول عن آرائه وتصرفاته، بل قد يفعل الشيء وهو يعتقد خلافه، وقد يظهر الإسلام وهو يبطن الكفر أو العكس.

وهذا المانع - بلا شك - ناتج عن الموانع السابقة، فإن أصحاب السلطة على الناس إنما يكرهونهم على اتباعهم بسبب بعض الموانع المذكورة آنفا أو جميعها، وهو من أكثر الأسباب مصادرة للحرية الفكرية في التاريخ.

المطلب الخامس: قضية الحرية الدينية:

من المسائل التي قررها الشيخ رشيد رضا هي أنّ الحرية الدينية مكفولة في الإسلام، وهي أمر لا شك فيه حسب قوله، وتعني: حق أهل الأديان في البقاء على دينهم، وإن كان ذلك بشروط، فقد أمر الله نبيه ﷺ بتبليغ دينه، والإعراض عن المكذبين، لأن سنة الله في خلقه اقتضت أن يكون الناس مختلفين، فلا يمكن أن يتفقوا على دين واحد، وأن على الرسل أن يتركوا حرية الاختيار للناس، كما أنّ الله قادر على هدايتهم لكنه ترك الأمر لمشيئتهم،

(1) انظر: رشيد رضا، تفسير المنار، (310/10).

(2) انظر: نفس المصدر والصفحة.

(3) انظر مثلاً: رشيد رضا، الوحي المحمدي، (ص/182، 185).

ليحصل الامتحان، ويتميّز المؤمن من الكافر، والتّقي من الفاجر، والحساب على الله سبحانه وتعالى⁽¹⁾.

وقد قرّر رشيد رضا أن القرآن بيّن من خلال آية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:256]، أن الدعوة إلى الحق إنما تكون بالحجة والبيان، لا بالقوة ولا بالحيلة، فإن ذلك مخالف لمبادئ الإسلام الواضحة التي لا تحتاج إلى مثل هذه الأساليب، حتّى إن الإسلام منح الحرية لليهود (غير المحاربين)، في دينهم ودنياهم، وساوى بينهم وبين النصارى والمسلمين في كثير من الأمور، بعد أن كانوا مضطهدين مقهورين من حكم الظلمة⁽²⁾.

كما يذكر رشيد رضا أننا نجد في الشريعة الإسلامية القائمة على العدل والمساواة أن لغير المسلمين من الحرية ما ليس للمرتد والمنافق من المنتمين إلى البلاد الإسلامية، من إباحة ذبائحهم، والمحصنات من نسائهم، وحرية إقامة شعائرهم بينهم، وإن لم تكن حلالا في الإسلام، في وقت تعاقب المسلمين على المعاصي والفسق بالحدود والتعزيرات⁽³⁾.

وهذا لا يعني أنهم ليسوا كفارا عنده، أو أنّ الله لا يعاقبهم على كفرهم، فإن آثاره العلمية طافحة بوصفهم بالكفر، وأنهم متوعدون بالعقوبة الإلهية على ذلك في الدنيا والآخرة، وهذا عملا بالأدلة الصحيحة الصريحة من الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، إنما قصده أنهم لا يجبرون على ترك معتقداتهم ولا يكرهون على الدخول في الإسلام، بشرط أن يخضعوا لحكم الإسلام، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى، وألا يسعوا لصد المسلمين عن دينهم، ولا يفسدوا في الأرض بإتيان ما يكون سببا في زعزعة استقرار المجتمع الإسلام، وتقويض وحدته، وتفريق كلمته، من مخالفات عقدية أو أخلاقية، فإن وحدة الأمة خط أحمر لا يسمح لأحد بتجاوزه، لا بحجة حرية المعتقد ولا غيرها.

(1) انظر: رشيد رضا، تفسير المنار، (553/7).

(2) انظر: المصدر السابق، (84/2)، (191/12).

(3) انظر: رشيد رضا، الخلافة، (ص/117 - 118).

وكثيرا ما بين الشيخ رشيد رضا في هذا السياق أنّ أهل الكتاب يجب عليهم اتّباع دين الإسلام، الذي هو دينهم ودين أنبيائهم، إذ إن دين الله على ألسنة رسله واحد، وإن الشريعة المحمدية ما هي إلا تكميل لشرائعهم، ولكنهم بدلوا وكفروا بما أنزل على محمد ﷺ، فلم يحققوا ما اشترط الله عليهم من الإيمان به ليدخلوا في جملة المؤمنين، فاستحقوا بذلك الوعيد على تحريفهم وتبديلهم، لا بكونهم مؤمنين بموسى وعيسى، وغيرهما من أنبيائهم، فإن هذا من أركان الإيمان في دين الإسلام⁽¹⁾.

ولعل هذا ما يقصده - رحمه الله - بقوله: إن الله ما دعانا لكون أعداء لهم، أي: في الظاهر، فإن من المعلوم في الشرع وجوب البراءة القلبية منهم ومما هم عليه من الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51]⁽²⁾، والشيخ لا يخالف هذا الأصل كما تقدم، ولأجل ذلك اشترط أن يقيموا على أصولهم الأولى، وهذا يعني التوحيد والإيمان بمحمد إذا جاءهم مصدقا لما معهم، وفي ذلك يقول: "إن الله تعالى ما شرع لنا الدين ليبعدنا عن الناس ويجعله سبباً للنفور بين الآخذين به وبين سائر الملل والنحل بل شرعه ليزيل به الخلاف ويستبدل بالنفور الائتلاف لا سيما أهل الكتاب الذين احترم أديانهم وهداهم إلى أن رفض الابتداع والتقاليد التي أحدثها التأويل والتحريف والرجوع إلى الأصول الأولى هما اللذان يسهلان عليهم الاتفاق معنا في الدين واعتباره واحداً لا ينبغي التفرق فيه"⁽³⁾، ولا يخفى ما في قوله هذا من الحرص على وحدة الأمة وجمع كلمتها، وذلك بتشريع التسامح حتى مع المخالف في الدين، بشرط التزامه بالأصول العامة التي دعت إليها الأديان.

(1) هذا وإن ردود الشيخ على أهل الكتاب وبيان كفرهم كثير جدا في كتاباته، انظر مثلا لا حصرا: تفسير المنار، (1/365 - 366)؛ تحريم المسلمة على الكتابي، مجلة المنار، (25/314)؛ بل قد بين الشيخ هذا المعنى صريحا، وأن المسلمين وأهل الكتاب متفقون في أصل الدين، ولكن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا وكذبوا بني الإسلام؛ انظر: تفسير المنار، (2/282 - 283).

(2) انظر مثلا في بيان كفر أهل الكتاب الذين لم يتبعوا النبي ﷺ وآمنوا بالتثليث: تفسير القرطبي، (13/350)؛ تفسير ابن كثير، (6/283).

(3) رشيد رضا: السؤال والجواب عن حل طعام أهل الكتاب، مجلة المنار، (3/333).

ويزيد رأي الشيخ رشيد في مسألة الحرية الدينية جلاءً تناول رؤيته لموضوع الجهاد في الإسلام وعلاقته بالحرية الدينية والفكرية، فإنه يرى بأن الجهاد إذا كان دفاعياً فلا إشكال فيه، وأما جهاد الطلب فالمقصود منه نشر دعوة الحق وإيصالها للناس، وقد علم بالاضطرار أن ذلك لم يكن ممكناً في عصور الإسلام الأولى وزمن الفتوحات الإسلامية بغير قوة وقتال، ومع ذلك فإن المسلمين لم يعمدوا إلى استعمال القوة إلا عند الحاجة، وبعد دعوة الأعداء إلى الإسلام أو الجزية، فإن قبلوا الدخول في الإسلام كانوا مثل سائر المسلمين، وإلا أخذت منهم جزية قليلة اكتفاء عن شرهم، وتركت لهم الحرية في دينهم وأموالهم، وأنفسهم، مالم يؤذوا غيرهم، أو ينقضوا عهدهم، ولا يجبرون على التحاكم إلى المسلمين، فإن فعلوا حكموا بينهم بالعدل، وهكذا فقد كان الغرض هو حماية دعوة الحق، وإيصالها إلى الناس، رحمة بهم، وجمعاً لهم عليها⁽¹⁾.

المبحث الثالث: الوحدة الإسلامية وأثر الحرية الفكرية عليها

المطلب الأول: أهمية وحدة الأمة عند الشيخ رشيد رضا:

شغلت قضية وحدة الأمة العربية والإسلامية تفكير الشيخ رشيد رضا، وجزءاً هاماً من كتاباته وخطاباته، بل يمكن القول إنه لا توجد قضية أخذت من الشيخ ما أخذت هذه القضية، وفي هذه العجالة تسليط لشيء من الضوء على هذا الجانب:

أولاً: مفهوم الأمة عند رشيد رضا: ذكر - رحمه الله - أن الأمة تُعرّف بكونها: "مجموع أفراد من عنصرٍ واحدٍ، ولُغةٍ واحدةٍ، وحضارةٍ واحدةٍ، أولي إرثٍ تاريخيٍّ شاملٍ عامٍّ، وشعورٍ بإرادةٍ تأليفٍ جماعةٍ سياسيَّةٍ واحدةٍ"⁽²⁾، ويمكن تلخيص وجمع مقومات الأمة الواحدة في ثلاثة أصول هي: المعتقدات العامة، الأفكار والمشاعر العامة، والمنافع العامة، فمتى اجتمعت هذه الأصول في أمة إلا اتحدوا وارتفعت عنهم أسباب العداوة الكبرى والخلاف المفرق⁽³⁾.

(1) انظر: رشيد رضا، الجهاد أو القتال في الإسلام، مجلة المنار، (16/25 - 28).

(2) رشيد رضا: الرحلة الأوروبية، مجلة المنار، (23/450).

(3) انظر: د. عمار قاسمي، أهمية الوعي بمفهوم الأمة العظيمة ودورها في حركة التاريخ الإنساني، الجزائر، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، مج: 15، ع: 1، 2023م، (ص/508).

ثانياً: المقصود بالأمة في هذا السياق هو الأمة الإسلامية، وهم جميع المنتسبين إلى دين الإسلام الذي بعث به نبينا محمد ﷺ، وبناء على ما سبق يمكن تعريف وحدة الأمة بأنها: اجتماع كلمة الأمة على الكتاب والسنة، لتكون جماعة واحدة يؤاخي بعضها بعضاً، وما يقتضي ذلك من واجب النصر والإعانة⁽¹⁾.

ثالثاً: مفهوم الأمة الواحدة عند الشيخ رشيد رضا؛ وهو ما عبّر عنه بقوله: "هي أُمَّةٌ ترتبطُها رابطةٌ قريبةٌ هي رابطةُ الاهتداءِ بِنُورِ اللَّهِ، والدَّعوةِ إلى توحيدِهِ، والقيامِ على شرعِهِ، وَحَمَلِ النَّاسِ على اتِّباعِ أحكامِهِ، فهي مجتمعةٌ على ... الحقِّ والعدل"⁽²⁾.

ولأن الوحدة ضدها التفرّق واختلاف التّضاد، إضافة إلى العلاقة الوطيدة بين الاختلاف وبين الحرية الفكرية، فإن مما يُجَلِّي لنا موقف الشيخ رشيد رضا من قضية الوحدة وعلاقتها بالحرية بيان موقفه من الاختلاف، وقد جاء تناوله كالاتي:

المطلب الثاني: الحكمة من الاختلاف الفكري بين البشر وحكمه:

لا شك أن مشيئة الله للاختلاف بين البشر في أفكارهم ومعتقداتهم، بل وحتى بين المسلمين أنفسهم، لم تكن إلا لحكمة بالغة، وكما أن للاختلاف غوائل ومضار كثيرة، فإن فيه من الفوائد والمنافع العلمية والعملية الشيء الكثير، فمنها على سبيل المثال: أن الاختلاف ثمرة الحرية الفكرية التي وكل الله الإنسان إليها ليعلم من يتبع الحق ممن يتبع هواه، ومنها أن يعلم الناس أن الحق الذي يجمع هو ما هدى الله إليه بواسطة وحيه إلى أنبيائه فيتبعوه، ومنها: ابتلاء بعض الناس ببعض: فيبلى المؤمن بالكافر والكافر بالمؤمن، والفقير بالغني والغني بالفقير، وهكذا دواليك، وكذا امتحانهم بالاختلاف في حد ذاته: فإن كثيراً من الناس إذا رأى كثرة الاختلاف ادعى أن ليس ثمة حق أو عدل أو حكمة فينكص على عقبيه، ومنها: ترغيب المؤمنين في دعائه والالتجاء إليه عند التباس الحق، وشكره على نعمة الهداية لما اختلف فيه من الحق، ومنها: الاجتهاد في طلب الحق ليطهر المجد من المتواني، وغير ذلك من الحكم⁽³⁾.

(1) انظر: أبو زهرة، الوحدة الإسلامية، (ص/11).

(2) رشيد رضا، تفسير المنار، (223/2).

(3) انظر مثلاً: رشيد رضا، تفسير المنار، (224/2 - 225):و: أسئلة من القوقاس، مجلة المنار، (826/15) وما بعدها.

وأما حكم الاختلاف عند رشيد رضا - رحمه الله - فإنه يرى بأن الاختلاف قسمان: قسم لا يمكن السلامة منه، وهو الاختلاف في الفهم والرأي، لأن الله تعالى فطر البشر على اختلاف لتفاوت القدرات، ولما فيه من الحكم والمنافع مما لا يظهر بغير وجوده، وأما الثاني: فهو النتائج عن تحكيم الأهواء في الشرع، وهذا الذي جاءت الأديان بالنهي عنه، لأنه يمنع الوصول للحقيقة عند التنازع واختلاف الآراء، فأثاره مدمرة على الأمة، أما القسم الأول فغير ضارٍ إذا صادف نُصحًا وتسامحًا مع المخالف المجتهد⁽¹⁾.

المطلب الثالث: أثر الاختلاف والتعددية الفكرية على وحدة الأمة:

إن الاختلاف والتعددية الفكرية كثيرا ما يؤديان إلى التصادم والتنافر، لأسباب كثيرة معظمها يرجع إلى طبع الإنسان وغبيرته الدافعة إلى التعالي وحب الذات والتكالب على الدنيا، لاسيما إذا اقترن بسوء القصد والتعصب للرأي، وهذا الذي يدل عليه النظر في تاريخ الأمم وواقعها.

ولهذا يعتبر الشيخ رشيد رضا أن الاختلاف مدعاة لتفريق الأمة وضعفها⁽²⁾، وأن البلاد التي تتعدد فيها القوميات والمذاهب والأحزاب غالبا ما تصير ميدانا للصراع بين تلك الأطراف، مثلما حدث كثيرا في التاريخ الإسلامي، وحتى في أوربا عندما تعددت الطوائف والفرق الدينية، وهو ما تسبب في حروب طاحنة أهلك العباد ومزقت البلاد⁽³⁾.

ومثلما يحصل بين الأحزاب السياسية من صراع على النفوذ، وتعصب للرأي، حتى إنك لتجد منهم من يقدم المصالح الحزبية الضيقة، على مصلحة الأمة وتوحيدها، فيكون سببا في تفرقها، من حيث ادعى أنه يخدم وحدتها⁽⁴⁾.

ومن هذا القبيل دخول الأفكار الهدامة المختلفة إلى بلاد المسلمين، من مثل مذاهب الحرية والماسونية والمدنية، ودعاوى العصبية الوطنية والقومية، التي حاول البعض فرضها كبديل عن الرابطة الدينية الإسلامية، فكانت سببا في تفكيك الأمة⁽⁵⁾.

(1) انظر: رشيد رضا، تفسير المنار، (19/4 - 20).

(2) انظر: تفسير المنار، (391/2)؛ و: محاورات المصلح والمقلد، مجلة المنار، (205/4 - 206).

(3) انظر: محاورات المصلح والمقلد، مجلة المنار، (206/4)؛ تفسير المنار (530/9).

(4) انظر: رشيد رضا، خطبة افتتاح الاجتماع السنوي لعام لجماعة الدعوة والإرشاد، مجلة المنار، (921/15)؛ تفسير المنار (128/10).

(5) انظر: رشيد رضا، الحيرة والغمة ومناشئهما في الأمة، مجلة المنار، (757/2).

وهكذا فإن كل اختلاف لم يصاحبه قصد الحق، أو كان في المسائل التي ظهر الحق فيها بيقين، فهو مفرق لوحدة الأمة، لصدوره عن هوى النفوس، والطبائع البشرية، فمثل هذا حقه أن يُمنع، ولا يُتسامح فيه.

وإذا كان الأمر كذلك فما هو الحل في نظر الشيخ رشيد رضا؟ هذا ما سنبحثه في العنصر الموالي.

المطلب الرابع: فقه التعامل مع الاختلاف عند حصوله:

إن تحرير الفكر كثيرا ما يكون بابا من أبواب الاختلاف كما سبق بيانه، وفي نفس الوقت فإن تحرير الفكر قد يكون عاملا إيجابيا في وحدة الأمة، وقد نهى الله عباده عن التفرق في الدين، لكنهم كانوا دائما يتفرقون، ودب هذا الداء إلى هذه الأمة، على الرغم من تشديد الإسلام في النهي عن ذلك، فتعددت الآراء وكثرت المذاهب واشتد التعصب لها، وامتناز أهل الحق بالدعوة إلى الاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما اتفق عليه الصحابة رضي الله عنهم، ورد كل خلاف إلى هذه الأصول، عملا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59].

ولأنّ الأفكار والمعتقدات يصعب غالبا إقناع أهلها بتركها، أو على الأقل التخلص من تأثيراتها، فإن الشيخ رشيد رضا كان يرى أن الحل الأمثل للقضاء على الفرقة الفكرية هو وجود دافع أقوى، أو مرجح يقبله الجمهور، وذلك هو الدين الإسلامي، وأصوله الثابتة بالأدلة اليقينية التي من عرفها وفهمها علم أنها الحق الذي لا مرية فيه ولا مناص عنه⁽¹⁾.

إن الحق الثابت لا يقبل الخلاف ولا التعدد، لكن إن كانت مسألة مما يسوغ فيه الخلاف، أو كان الخلاف لسبب معتبر كفهم الدليل، كان الحفاظ على الوحدة أهم من أن يكون ذلك سببا للعداوة، بل إن إسقاط بعض الواجبات أو التسامح في بعض المحرمات أهون من شر تفرق المسلمين، وهذا كان شأن السلف الصالح؛ ولهذا سمووا بأهل السنة

(1) انظر: رشيد رضا، تفسير المنار، (391/2).

والجماعة، فهم أبعد الناس عن التضليل والتكفير في غير المتفق عليه، فمن خالف في ذلك كان خارجا عن أهل السنة والجماعة⁽¹⁾.

وأما أمور السياسة فإنها ترجع للحاكم الشرعي، فله أن يرجح بعض الأحكام على بعض استجلابا للمصلحة أو دفعا للمفسدة، مع استشارة أهل الحل والعقد في ذلك، وخصوصا إذا لم يكن أهلا للاجتهاد في المسائل الشرعية، ولكن تحقيق ذلك لا يتم إلا بوجود جماعة ملتفة حول أولي الأمر وأهل الحل والعقد، الذين يوكل إليهم تعيين حكامها، والتي لا يجوز لأحد مفارقتها⁽²⁾.

وهكذا الشأن بالنسبة إلى الأحزاب والجمعيات السياسية، فإنه وإن كان يرى أنها كثيرا ما تثير العداوات، لكنها بالنسبة إليه ضرورة طبيعية في الأمم، وأنها إن ضبظت بالشرع ووحدة المقصد ونبله، كانت سببا لمعرفة الحقائق، ومعارضةً تعمل على تقويم سلوك الحكام والمسؤولين في حالة ميلهم عن الحق⁽³⁾.

وخلاصة القول في هذا الباب أن الشيخ رشيداً دعا كثيرا إلى الحرية الفكرية المحموده، والتي تعني تحرير الفكر والفقه من التقليد والتعصب، وفتح حرية الاجتهاد والنظر في الأدلة لمن كان أهلا، وأما العامي فشأنه أهون، والواجب عليه أن يسأل المجتهد، ويأخذ ما اطمأنت إليه نفسه، لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43].

- دفع استشكال: هناك إشكال قد يرد في هذا السياق مفاده أن من الملاحظ على دعوة الشيخ سعيه بشدة إلى التقارب بين المذاهب الإسلامية، سواء كان الخلاف بينها في العقيدة أو الأحكام، وحجته في ذلك أن الحفاظ على وحدة الأمة أهم من المسائل المختلف فيها، لكننا نلاحظ من جهة أخرى أن الشيخ كثيرا ما يدعو إلى هجر البدع وذم أهلها، فلماذا هذا التعارض في مواقف الشيخ؟ وهل هذا يعد تناقضا منه؟

(1) انظر مثلا: رشيد رضا، تفسير المنار، (118/9)، (299/11)؛ ومقدمة خلاف الأمة في العبادات، مجلة المنار، (265/10) وما بعدها.

(2) انظر: رشيد رضا، تفسير المنار، (206/12)؛ الأحكام المتعلقة بالخلافة، مجلة المنار، (749/23).

(3) نستشف ذلك من خلال مقاله: الأحزاب في مصر، مجلة المنار، (770/10 - 773).

إذا تأملنا في مواقف الشيخ رشيد رضا علمنا بأن كلامه هنا وهناك لا يعد تناقضا في المواقف، وإنما هو نابع من نظرتة إلى نوع الخلاف، فإذا ظهر له أنه خلاف في الفروع أو في أصول غير متفق عليها، أو تحتل تأويلا أو شبهة، فمثل هذا الخلاف لا يقدم على وحدة الأمة، إذا كان مصحوبا بالحرص على التماز بالحجة والإقناع وقصد الوصول إلى الحق وعدم التعصب، والرجوع إلى الحق متى ما تبين، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف التي كانت تمر بها الأمة في ذلك الوقت، وأما الفرق الغالية والمخالفة في المعلوم من الدين بالضرورة، أو من يرفض منها الانصياع للحق بعد تبينه فإن الشيخ رشيد رضا كان أول المنكرين عليها، كنكاره على غلاة الشيعة سبهم للصحابة ﷺ، وعلى كثير من الطوائف المنحرفة وتكفيرهم، وبيان تكفير أئمة السلف لبعضهم⁽¹⁾، وغير ذلك كثير، وذلك أن هذا الانحراف هو من أكبر أسباب تمزق الأمة شيئا وأحزابا متناحرة⁽²⁾.

المطلب الخامس: المقومات الفكرية المشروعة للوحدة في ظل الاختلاف والتعدد:

منح الله البشر رابطة شاملة تصلح لضم الناس جميعا تحت سقفها على ما بينهم من اختلاف، وهي وحدة الاعتقاد والشريعة، وفي ذلك يقول الحق عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13]؛ والوحدة قسمان؛ الأولى: وحدة عامة بين المسلمين وغيرهم على أساس العدل والمساواة، والسعي لمصلحة الجميع في الدنيا، والثانية: وحدة الأخوة الإيمانية، وهي رابطة تجمع المسلمين دون غيرهم، وإن الإسلام ما جمع الأمة على خلافة واحدة، إلا بعد أن جمعها على عبادة رب واحد، وشرع واحد، ونبي واحد، وكتاب واحد⁽³⁾.

(1) كالبابية الهائية، والعبديين من الشيعة، وغيرهم.

(2) انظر مثلا لا حصرا: تفسير المنار، (189/8)، مجلة المنار: البابية الهائية، (14/78-80)، السنة والشيعة، (31/290) وما بعدها؛ ومن أمثلة ذلك أيضا رده على من وصفهم بغلاة الطرق الصوفية وأئمة الحلول والاتحاد كما في تفسير المنار، (11/344) وما بعدها. ولقد قال عنه العلامة البشير الإبراهيمي: "كان طول حياته بلاء مسلطا على طائفتين: دعاة التدجيل من المسلمين ودعاة النصرانية من المسيحيين؛ فلم نعرف في التاريخ من فضح الطائفتين شر فضيحة غير الأستاذ السيد رشيد، وإن أزهى الصحائف في سجل حياته هي تلك المواقف العاتية التي كان يقفها في الدفاع عن الإسلام ونصره، ورد عوادي الكفر والضلال عنه"، [المصدر: آثار البشير الإبراهيمي، (179/1)].

(3) انظر: رشيد رضا: الخلافة (ص:60)؛ ومقالي: الجنسية والدين الإسلامي، والجنسيات في المملكة العثمانية، مجلة المنار، (2/321-327)، (17/534).

وعلى هذا الأساس يعتبر رشيد رضا أن الأصل في وحدة الأمة أن تشكل البلدان الإسلامية بلدا واحدا، يحكمه خليفة واحد، يدعن له جميع المسلمين، مع مراعاة خصائص كل قطر؛ لأن أمر الخلافة هو أولى الأمور التي يجب أن تكون لها جهة واحدة ينتظم بها أمر الأمة، وتجنب بها الفوضى، وهذا إذا كانت الوحدة ممكنة، وكان أقطار الأمة ضيقة بحيث يسع الحاكم الواحد تديره⁽¹⁾.

فإن تعذر ذلك سياسيا، فلا أقل من أن يكون هنالك حاكم شرعي في بقعة صغيرة من الأرض يلتف حوله المسلمون روحيا، فيتخذونه إماما في قضايا الأمة الكبرى، وتحقيق مصالحها العامة، وإن الأمة التي مزقتها الجنسيات، والعصبية المذهبية، والعنصريات العرقية، والحدود الجغرافية، فصارت أوطانا متفرقة لا يربط بينها إلا شعارات جوفاء، لا يمكن توحيد الإمام وتنصيب خليفة واحد عليها⁽²⁾.

المطلب السادس: العلاقة بين الحرية الفكرية ووحدة الأمة:

من خلال النظر في آراء الشيخ رشيد رضا في المسألة، يلاحظ أنه كان يرى بأن إطلاق الحريات في الفكر والدين لكل أحد وبدون قيد، من أكبر أسباب تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، لكن الحرية المضبوطة بالشرع والعقل وموازن الأخلاق العامة، مع العمل على تعزيز الحرية الفكرية الإيجابية، المتمثلة في مشروعية الاجتهاد والتجديد والنظر والنقاش والنقد البناء، وقبول الرأي الآخر إذا كان احتملا للصواب وحسن قصد صاحبه، وتفعيل دور الشورى بمعناها الشرعي، هي التي تحقق للأمة وحدتها وتآلفها⁽³⁾.

وقد سبقت الإشارة في تعريف الشيخ رشيد رضا للحرية أنها لا تعني الإباحية والتعدي على حق الغير، ولهذا يذكر مجموعة من الضوابط للحرية، حتى لا تصبح انفلاتا يهوي بالناس إلى دركات الحيوانية. وأهم تلك الضوابط: اتباع شرع الله، والتزام حدوده، وفي هذا المعنى ينقل عن شيخه محمد عبده - رحمه الله - قوله: "وليسست سعادة الإنسان في حرية الهائم، بل في الحرية التي تكون في دائرة الشرع ومحيطه"⁽⁴⁾.

(1) انظر: رشيد رضا، الخلافة، (ص/56-59).

(2) انظر: المصدر السابق، (ص/56-60، 113).

(3) انظر: رشيد رضا، حرية الجرائد والشعور بالفضيلة، مجلة المنار، (38/5).

(4) رشيد رضا، تفسير المنار، (1/238).

وهكذا أنكر ما عند الغربيين من استحلال للمنكرات بدعوى إطلاق الحرية وكمالها، وعدّ ذلك من غلوهم في مفهوم الحرية؛ فإن إطلاق الحرية الشخصية من القيود، والغلوّ في ذلك، من أكبر الضلالات الهدامة للأخلاق والأُمم، والتي دخلت على المسلمين من باب التقليد الأعشى للغرب.

وكثيرا ما أكد رشيد رضا أنه لا ينبغي السكوت عن المنكر باسم فتح باب الحرية، ولا التغاضي عن المفسدين والمنافقين، ودعاة الأديان والمذاهب الباطلة، فهذا مما جرّ مفسد كبيرة على بعض بلاد المسلمين، في مقابل مصالح قليلة، وتسبّب في حروب وأضغان بسبب نشر أفكار دخيلة على المسلمين، وانتشار الفسوق والبدع والتفّاق والكفر والطعن في الدّين والاستهزاء بتعاليمه، وسكت العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً أو طمعا، وكثرت الاعتداءات والخصومات؛ والغريب أنّه حتّى من يطالبون المسلمين بالحرّيات هم أنفسهم يحرمون منها مُعارضهم، كما حصل من الدّول الاستعماريّة مع سكان مستعمراتها، وكذا ما حصل من تخطيط اليهود لهدم السلطة الدينية باسم الحرية والمدنية⁽¹⁾.

وتطبيقا لهذا المبدأ فقد عرف عن الشيخ رشيد رضا - رحمه الله - رده على دعاة الضلالة، وإنكاره بشدة على الدعوات الإلحادية التّغريبية التي دخلت بلاد الإسلام باسم التجديد والحداثة والتّقدم، ومن ذلك انتقاده وردّه على بعض الطاعنين في أحكام الشريعة، خصوصا في قضية حقوق المرأة، وتطبيق الشريعة، واعتباره ذلك خروجا عن نسق الأمة، وتمييعا للدين، وبابا للطعن في أحكامه الثابتة، وتفريقا لكلمة الأمة، وقد رد على من دافع عنهم بدعوى الحرية، واعتبر الرد عليهم واجبا شرعيا، والسكوت عنهم حراما ومنكرا⁽²⁾.

وكان ينعى على الحكومات إطلاقها للحرّيات وغفلتها مع ذلك عن التربية الدينية التي من شأنها أن تحد من آثار خروجها عن السيطرة، فلا هي قيدت الحرية بالضوابط القانونية والردعية القائمة على أسس دينية وأخلاقية، ولا هي نشرت التربية الدينية التي تشكل وازعا نفسيا قويا في منع الفساد والرذيلة⁽³⁾.

(1) انظر: رشيد رضا، القضايا الدينية في المحاكم ونتائج الحرية، مجلة المنار، (553/26)؛ تفسير المنار، (113/5).

(2) انظر مقالاته: المتفرنجون والإصلاح الإسلامي، الانتقاد على فريد وجدي، جميل صدقي الزهاوي، واللاذينيون في تونس ومصر، مجلة المنار، (408-404/20)، (456/10) وما بعدها، (841/13-846)، (548/26-551)، تواليا.

(3) انظر: رشيد رضا، تفسير المنار، (474/8).

كما أكد الشيخ رشيد رضا مرارا أن حرية الفكر لا تُسوّغ الابتداع في الدين، فالبدع كلها ضلالات مفرقة، لقول النبي ﷺ: "...وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"⁽¹⁾، وهي من أكبر وأكثر أسباب تمزق الأمة⁽²⁾؛ ولهذا عرف عنه رده على دعائها من مثل رده على غلاة الشيعة طعنهم في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وتشنيعه عليهم في ذلك، كما طلب منهم الكف عن كل ما تقتضي وحدة الأمة تركه أو عدم إظهاره كحد أدنى، لكن هذا لا يعني عنده رفض التقارب مع معتدليهم، والعمل على النقاش الهادئ في المسائل المختلف فيها، وقصد الحق من ذلك بالرجوع إلى أصول الإسلام، مع التسامح فيما يمكن التسامح فيه من مسائل الفروع⁽³⁾.

وهكذا يتبين بأن الشيخ رشيد رضا لم يكن ممن يتغاضى عن الأفكار المنحرفة بدعوى الحرية المشتركة، وتقبّل الرأي الآخر، وعدم تفريق كلمة الأمة، وصيانة عقيدة شعبيها ولو كانت باطلة، فهذه الحجة كانت دائما عكازة يدفع بها أهل الضلال والفساد في وجه دعوة المصلحين، وأما العقلاء من الناس فإنهم يتبعون الحق متى ما تبين، وينكرون المنكر، ولو خالفهم من خالفهم، فالعيب في المخالف لا فيمن يتمسك بالحق الثابت.

ومن جانب آخر نجد بأن رشيد رضا نفسه ينتقد قول من قال بأن تحقيق الوحدة الدينية مستحيل في ظل الاختلاف، وأن السعي إليها كان أكبر أسباب الفتن والصراعات في الإسلام والنصرانية، وأن البديل الناجح هو الوحدة الوطنية المتعالية عن سائر الاختلافات، وقد رد على هذا القول بما ينقضه، حيث بيّن أن النماذج التي اعتمد عليها القائل لا تمثل صورة الإسلام ولا المسلمين الحقيقيين⁽⁴⁾.

لذا فهو يرى بأن المصلحة الكبرى في وحدة الأمة، تقتضي أن يقوم أولياء الأمور بوظيفتهم في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، فإن لم يمكن أو كان فيه مفسدة أكبر فلا أقل من أن يكون التعدد في الشكل مع الوحدة في المقاصد كما هو معمول به في دول الغرب، ويقتضيه الشرع والعقل وتجارب الأمم، أو يكون هنالك سلطة تفرض الطاعة على الرعية، والالتزام بقوانين المجموعة ولو بالإكراه⁽⁵⁾.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، (592/2)، برقم: (867)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(2) انظر: رشيد رضا، البدعة اللغوية والبدعة الشرعية، مجلة المنار، (660/27).

(3) انظر: رشيد رضا، السنة والشيعة وضرورة اتفاقهما، مجلة المنار، (290/31) وما بعدها؛ وتفسير المنار، (199/8).

(4) انظر: رشيد رضا، السلطان الدينية والمدنية، مجلة المنار، (859 - 855/5).

(5) انظر: رشيد رضا، مقال: نتيجة حرب الجزيرة، مجلة المنار، (79/34)؛ وتفسير المنار، (128/10).

المطلب السابع: من أسس الدعوة إلى الحرية الفكرية الخادمة لوحدة الأمة:

من أسس الدعوة إلى تحرير الفكر بالمعنى الذي يحقق للأمة وحدتها، ويجنبها سبل

التفرق:

1 - الدعوة إلى التجديد ونبذ الجمود: وهو من صور الحرية الفكرية المطلوبة شرعا، خصوصا مع كثرة الخلل وانقلاب الموازين في مجالات الدين والأخلاق والسياسة والاجتماع وغيرها في زمن الشيخ رشيد رضا، فكان أن احتاجت الأمة ضرورة إلى التجديد، والخروج من أسر التقليد والجمود، وذلك بالرجوع بالدين إلى سهولته وهدايته كما كان في الصدر الأول، وجمع كلمة المسلمين على ما أجمعوا عليه قبل التفرق، وفتح الباب أمام الاجتهاد، واستخدام الفكر، ومواكبة التطورات والنوازل الحاصلة، والإفادة من تجارب الأمم المتحضرة في القوة المادية وأنواع العلوم والفنون، مع اعتذار بعض المجتهدين لبعض، وفق قاعدة: (قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب)، في إطار ثوابت الدين وأصوله، وهذا ما يسميه الشيخ رشيد رضا - رحمه الله - (تجديدا استقلاليا)، يعني أنه قائم أساسا على الاجتهاد وحرية الفكر⁽¹⁾.

وهذا نعلم أن الشيخ لا يحبذ أن يستقل كلُّ برأيه، أو بفتوى خاصة، بحجة الاجتهاد والحرية الفكرية، فإن القضية عندما تتعلق بوحدة الأمة يجب أن يُنسى كلُّ تحيُّز غير التَّحَيُّز للحقِّ الثَّابت بأصوله.

2 - معيار الاجتماع هو الحق وليس الكثرة: إن مبدأ الحرية الفكرية لا يعني أن يخضع الحق لأهواء الناس، ولا أن تكون الكثرة معيارا لمعرفة الحق، فإن "الأكثرية لا تستلزم الحقيقة والإصابة في الحكم"⁽²⁾، ولذا نجد بأن الشيخ رشيد رضا يؤكد أن تعيين الحاكم مثلا يجب ألا يوكَل إلى عامة الشعب، وإنما يتم من قبل أهل الحل والعقد، وهم علماء الأمة الذين لهم أهلية النظر قضايا الأمة العامة، فإنهم هم أولو الأمر عند التحقيق⁽³⁾.

(1) انظر: رشيد رضا، التجديد والتجدد والمجددون، الجزء الأول والثاني، مجلة المنار، (771/31 - 772)، (230/32 - 231).

(2) رشيد رضا، تفسير المنار، (155/5).

(3) انظر: رشيد رضا، تفسير المنار، (148/5)، الخلافة، (ص/78).

وهذا لا يعني الاضطهاد والاستبداد، بل إن من الحرية الفكرية البناءة المحافظة على الوحدة، والتي أوكلتها الشريعة الإسلامية للشعوب المسلمة، النصيحة لحكام المسلمين بأن يقوموا بواجباتهم الشرعية من حراسة الدين، وسياسة الدنيا به، وإقامة العدل بين الرعية، وإحياء السنن وإماتة البدع، ومحاربة الانحراف والأفكار الهدامة، ونبذ الخلاف المذهبي والطائفي، فإن لم يفعلوا ذلك تمزقت الأمة كما حصل في أزمنة مضت، حتى صارت شيعة وأحزابا، وانفلت عقد الخلافة فصارت الأمة أمما⁽¹⁾.

(1) انظر: رشيد رضا، مقالات: الدين والدولة، الجامعة الإسلامية، والخلافة والخلفاء، مجلة المنار. (360/2)، (338/2)، (630/1) على التوالي.

الخاتمة والتوصيات:

تم بحمد الله وحسن توفيقه إتمام هذا البحث الذي استفدت منه كثيرا، كونه يتعلق بموضوع مهم يتمثل في بيان مواقف الشيخ رشيد رضا من قضايا الحرية الفكرية وعلاقتها بوحدة الأمة، وبعد البحث والنظر يمكن الخلوص إلى النتائج الآتية:

- 1 - يعتبر الشيخ رشيد رضا من دعاة الحرية الفكرية المقيدة بأحكام الشرع والأعراف الإنسانية، فهو: مع الحرية ضد الجمود والتعصب، ومع الحق ضد الانفلات والتفرقة.
- 2 - الحرية الخارجة عن القيد السابق تهديد كبير لوحدة الأمة وكيانها، ومثلها أو أخطر منها الحجر على الحريات المشروعة وما فيه مجال للاجتهاد وطرح الآراء .
- 3 - الحرية الفكرية داخل الإطار المذكور وإن أدت إلى الاختلاف فإنما هو اختلاف تنوع وتكامل، يؤدي إلى الوصول إلى معرفة الحق، ويرجع إلى طبيعة البشر التي لا تخرج عن إرادة الله الكونية، مالم يصاحبه تعصب، وكان الأمر قائما على الشورى والعدل.
- 4 - جريمة الافتراق إنما تقع على من خالف الحق، وخرج عن السنة، وابتدع في الدين، وخالف سبيل المؤمنين وليس على من تمسك بالهدى إذا ضل الناس، فإن الهدى يجمع ولا يفرق ولو خالفه كل الناس، فإنهم هم الذين تفرقوا واختلفوا.
- 5 - التعددية والاختلاف بين البشر - ومنه الفكري - وإن كان سنة إلهية ينبغي التعايش معها، إلا أنها من الناحية الواقعية غالبا ما كانت سببا من أهم أسباب الفرقة، ولها بالمقابل حكم وفوائد، بشرط أن يكون في حدود المسموح شرعا والمقبول عقلا، وأن يتخذ طريقا للوصول إلى الحق، لا سببا للعداوة والتفرق.
- 6 - التحذير من البدع والأفكار الدخيلة التي كانت ولا تزال من أخطر ما يهدد وحدة الأمة، وأن العاصم من التفرق إنما هو بالرجوع إلى الكتاب والسنة كما فهمهما سلف الأمة.
- 7 - الخوف من الفرقة والتنازع ليس مبررا لرد الحق، ولا للجمود والرضا بالواقع، ودعوى جمع الناس على رأي أو فكر باطل، بالإضافة إلى أن كثرة الأتباع ليست معيارا في معرفة الحق.

9 - من ثمرات جهوده في هذا السياق تأثر الكثير من علماء العالم الإسلامي بأفكاره وأعماله، ونسجهم على منواله، كما حصل من علماء ومشايخ ودعاة جمعية العلماء المسلمين الجزائرية وغيرهم، حتى كان لذلك أثر طيب لا ينكر على شريحة كبيرة من المسلمين، وإن كانت ظروف العالم الإسلامي لم تسمح بتحقيق نتائج أفضل مما كان.

وفي ختام هذا البحث يمكن إجمال أهم التوصيات وبيانها في النقاط الآتية:

- 1- اقترح أن يكون الموضوع مادة لمؤلف مستقل أو رسالة أكاديمية حتى يتوسع فيه أكثر، ويحاط به من جميع جوانبه بما يستحقه من التفصيل والبيان.
- 2 - إن طرح موضوع الحريات الفكرية في عصرنا هذا فتح الباب أمام الدعوات الهدامة المهددة لكيان الأمة، سواء كانت في باب الشبهات أو الشبهات، للولوج إلى عالمنا الإسلامي، وإلى عقول أبناء المسلمين، لاسيما في ظل الانفتاح التكنولوجي، وعليه فإن على الدعاة والمصلحين وطلبة العلم مسؤولية عظيمة تتمثل في العناية بهذه القضية عناية بالغة، عن طريق ما يتاح لهم من وسائل، تعلموا وتعلّما وبيانا ودعوة وتطبيقا، مستفيدين من تجارب من سبقوهم في هذا الميدان من أمثال الشيخ رشيد رضا وغيره من المصلحين.
- 3 - مواصلة الجهود في نشر ميراث أمثال الشيخ رشيد رضا من المصلحين، وتعريف الناس به، واستخراج المكنونات من كنوزه التي كلما تعمق الباحث في الاطلاع عليها تبين له منها الكثير مما كان خافيا، من دقيق المعاني، وجليل المعارف التي تحتاجها الأمة في سبيل تحقيق نهضتها المنشودة.

فهرس المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ط: 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1997م.
- الزركلي، الأعلام، ط: 15، بيروت: دار العلم للملايين، 2002م.
- شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة، ط: 1، دمشق: مطبعة ابن زيدون، 1356هـ/1937م.
- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ط: 2، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984هـ.
- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ط: 1، مصر: مكتبة الثقافة الدينية، 1415 هـ.
- عبد الله الجربوع، أثر الإيمان في تحصين الأمة ضد الأفكار الهدامة، ط: 1، المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، 1423هـ/2003م، (584/2).
- علي الشَّحود، مفهوم الحرية بين الإسلام والجاهلية، ط: 1، طبعة المؤلف، 1432هـ/2011م، مرقم الكتروني.
- عمار قاسمي، أهمية الوعي بمفهوم الأمة العظيمة ودورها في حركة التاريخ الإنساني، الجزائر، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، مج: 15، ع: 1، 2023م.
- ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دط، بيروت: دار الفكر، 1399هـ/1979م.
- فهد الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ط: 2، الرياض: مؤسسة الرسالة، 1403هـ/1983م.
- القرطبي، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط: 2، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384هـ.
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي سلامة، ط: 2، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ.
- محمد أبو زهرة، الوحدة الإسلامية، دط، بيروت: دار الرائد العربي، دت.
- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دط، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م.
- محمد رشيد رضا، الخلافة، دط، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، دت.
- محمد رشيد رضا وغيره، مجلة المنار، مصر: مطبعة المنار.
- محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ط: 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1426هـ/2005م.
- محمد عزار، الحرية مقصد شرعي عند علماء جمعية العلماء المسلمين، الجزائر: مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، مج: 15، ع: 2، 2023م.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: 2، بيروت: دار الفكر العربي، 1398هـ/1978م.
- ابن منظور، لسان العرب، ط: 3، بيروت: دار صادر، 1414 هـ.
- يوسف سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، دط، القاهرة: مطبعة سركيس، 1346هـ/1928م.